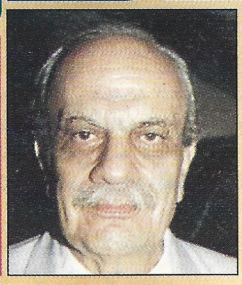

الى متى يستمر الخداع؟

كلّما ادخلت عملية «السلام» في غرفة العناية الفائقة بالمنعشات والمصل والمنشطات ووقف فوق رأسها الممرضون ومساعدوهم، منتظرين البشرى لزفّها الى العالم، كلّما كان الشرط لاغاثتها تغيير شكلها ومضمونها. فقد زحلت من مدريد الى اوسلو ومن اوسلو الى اتفاق الخليل الذي هللوا له قبل شهور واعتبره جهابذة الطبّ بالوخز بالابر انه الفتحة الى السلام والمنطلق الى التطبيع، والتنازل الكبير الذي اقدم عليه نتانياهو، والنصر الذي حققته السلطة الفلسطينية.

ثم انقشع ذلك كله عن مجازر ترتكب وصدامات في الشوارع ودماء فلسطينية تسفح واعلام اسرائيلية تحرق في الخليل وفي كل مدن الضفة وغزة وفي القدس ايضاً.

وانطوى اتفاق الخليل واعراسه وعراضاته عن مأتم مجلل بالسواد كل يوم. وقد استفرس الاستيطان وتمادى العدوان. ومن قبل اتفاق اوسلو انتهى الى انه خرقة بالية، مواعيده «غير مقدسة» وتواقيعه لا تصرف، وهو المثخن بالتنازلات حتى انه بالعنوان تنازل عن حقوق تقرير المصير والعودة والدولة لمصلحة الحكم الذاتي المحدود. مع ذلك ساء الوضع الى اكثر مما كان في ظل الاحتلال بدون الاتفاق.

فلم يعد مباحاً الانتقال من بلدة الى بلدة الا بعد معاملات اصعب من الانتقال من دولة الى دولة، وحواجز جيش الاحتلال لا تعفي اعضاء «الحكومة الفلسطينية» من التفتيش والانتظار عليها واخذ الترخيص منها!

ثم الحصار تلو الحصار والتجويع هو القوت والبطالة هي المتفشية والقهر هو النهج. وتبخّرت اوسلو عن محنة متمادية بات اللهج بويلاتها هو لسان موقعيها لامتصاص نقمة انفجرت في الشارع الفلسطيني. واين هو هذا السلم والتظاهرات تملأ المدن والبلدات الفلسطينية وتحرق اعلام اسرائيل ومعها اعلام الولايات المتحدة؟

وهرب العدو الى لبنان قصفاً وتدميراً وقتلاً وتصعيداً من فلسطين الملتهبة لعله يكسر هنا حلقة الصمود العاصية ويحقق خرقاً في هذه الجبهة المقاومة والمستندة الى عمقها القومي في سوريا فيفصل بينهما ويحقق مكسباً.

واعتبر نتانياهو ان وقف الرحلات المكوكية الاميركية على طريقة كريستوفر يتيح له المجال حتى يؤدّب المنطقة ويكسب تنازلات ويفرض شروطه وسلمه حيث كان الصمود ويخفض المستوى الى ادنى مما وقع حزب العمل حيث ابرمت الاتفاقات.

وامتنعت السيدة اولبرايت عن الدوران في المنطقة وشغلت نفسها برحلات من الشرق الاقصى الى اوروبا وخاصة الى تيشخيا حيث اكتشفت اصولها اليهودية التي لم تكن - على حد قولها - تعرفها من قبل!

وضربت السيدة اولبرايت موعداً قسرياً مع الحكّام العرب بأمر عمليات ان يلتقوها في الدوحة ليجددوا البيعة للتطبيع مع اسرائيل ويكسروا قراراتهم في جامعتهم بوقف التطبيع والمفاوضات المتعددة الطرف واغلاق الممثليات.

وخلال ذلك بدّل نتانياهو قواعد اللعبة فأصبح الامن هو الموضوع و«شريكه» الفلسطيني هو الملوم بل المتهم تارة بانه وراء الانتفاضة في المدن - التي تحرج شريكه - وطوراً هو المسؤول عن العمليات.

ووقفت السيدة اولبرايت مع مطلب نتانياهو: الامن ضد «العنف» ووضعت معايير جديدة للاخلاق. فأدانت «العنف» سواء اكان حجراً في يد طفل فلسطيني او استشهاداً في ساحة، وميّزت في ميزانها الشديد الدقة في معاييره بين «لا اخلاقية» العنف و«اخلاقية» الجرافات، مرة ومرتين وثلاث اكدت هذا التمييز.

الجرافات يقول نتانياهو هي لبناء المنازل وتردد اولبرايت معه بان الجرافات «اخلاقية» فهي للعمران! لكن الجرافات هي للاستيطان، هي لاقتلاع شعب من ارضه وزرعها بمستوطنين آتين من تشيكيا واوديسة والبلطيق، خزر لا يعرفون فلسطين الا بالاغتصاب والارهاب، بالهاغانا وشتيرن والارغون التي بات اسمها «جيش الدفاع»، الدفاع ضد من، وهو الذي دائماً في حالة الهجوم والتوسع من الجولان الى جنوب لبنان!

ولكن الموضوع لم يعد مسألة حقوق الانسان، ولا حق تقرير المصير، ولا حق الشعوب بمقاومة غزاتها، ولا الحرية التي جعلوها ربّة الارباب في العالم الحرّ!

المسألة باتت أمن الاحتلال وأمن الاستيطان، أمن الجرافات التي يطلبون من السلطة الفلسطينية ان تحرسها! وهل من اذلال فوق هذا الاذلال؟! يصرح الفلسطينيون ان الحصار تجويعي في ظل معاهدة اوسلو، فيهرع «الوسطاء» العرب والاجانب وتصبح المسألة تخفيف «الحصار» لا جلاء الاحتلال ولا وقف الاستيطان.

هكذا تزحل القضايا وتنزلق المسائل وتتبدّل طبيعة الامور. الامن للاحتلال وتخفيف الحصار عن الشعب الفلسطيني. اما حقوقه، اما مصيره، اما ثلاثة ارباعه المشرد، فهذه امور ليست هي الاساس!

المهم ان يحقن المريض في العناية الفائقة حتى يستفيق ولو للحظات، ومتى استفاق قيل تحقق انفراج واذن ستأتي السيدة اولبرايت بعد نجاح المستر روس، فالمريض سيفتح عينيه، وليس مطلوباً اكثر ليشاهد الزوار ولتنطلق عملية السلام كما انطلقت من قبل من مدريد الى اوسلو الى الخليل الى النفق الى العناية الفائقة، لتنطلق وبعدها نرى.

لتنطلق حتى تصبح الذريعة موجودة بعد ان اهتزت المعادلات واعلنت حكومات عزوفها عن الذهاب الى الدوحة فيقال ها ان عملية السلام عادت تتحرك فلتكمل المسيرة الى الدوحة.

هل تستمر الالاعيب القديمة كما لو ان نتائجها الوخيمة لم تُكشف؟

الرهان عند اصحاب اللعبة على استمرار الخداع ورهاننا على وعي الامة!■